

الفصل الثامن عشر

العباسيون

١٩٨ - ٢٣٢ هـ (٨١٣ - ٨٤٧ م)

المأمون العظيم - المعتصم - الواثق

المأمون في مرو - الاضطرابات في بغداد - وفاة الإمام على الرضا -
المأمون في بغداد - الحروب مع الروم - المذهب العقلي - وفاة
المأمون - أخلاقه - تطور حياة العرب العقلية في عهد المأمون -
خلافة المعتصم - تغيير العاصمة - تأليف الحرس التركي - القبض
على بابك - انهزام الروم - وفاة المعتصم - خلافة الواثق -
أخلاقه - وفاته

المأمون في مرو لو أن «المأمون» قصد توا إلى بغداد لما اختل حبل الأمن هناك ، ولما وقعت تلك الاضطرابات في السنوات القلائل التي أعقبت انتصاره على الأمين ، ولكنه اعتمد على وزيره الطموح «الفضل بن سهل» تاركاً له إدارة شؤون البلاد ، فأصرأهم على مناظراته الفلسفية مع العلماء والحكماء الذين كانت تتألف منهم بطانته ؛ وكان الفضل من جهته يتوق إلى إبقاء الخليفة تحت نفوذه في مرو ، لذلك لم يكن يسمح قط بأن تتطرق إلى مسامعه الأخبار الحقيقية عن شؤون الدولة في المغرب .

وبعد وفاة «الأمين» بقليل ثار أحد أشياع الأمويين واسمه «نصر»^(١) في الجزيرة متحدياً جيوش الخليفة طوال خمس سنوات ، كما ثار في تلك الأثناء بعض القبائل على الحسن بن سهل الذي كان قد ولاه أخوه الفضل على العراق

الاضطرابات في
العراق وجزيرة
العرب

(١) هو نصر بن شيث من عشيرة عقيل .

ويلاحظ أن هذه الحادثات لم تقع دون أن تؤثر على أحفاد « على » الذين خرجوا الآن مع أولاد جعفر الملقب بالطيار على الخليفة ، ولم يكن لهؤلاء إلى الآن اسم يذكر أو صوت يسمع ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى أيقنوا أن ساعة العمل المشر قد أزفت ، وأن الفرصة المواتية قد تهيأت لاستعادة حقوقهم المنصوبة كذلك ظهر علوى آخر يسمى « ابن طباطبا » فى الكوفة وأخذ يدعو الناس لآل البيت ، وكان يعضده فى دعوته « أبو السرايا » أحد قطاع الطرق ، فوجد الاثنان صفوفهما واقتتلا مع الحسن بن سهل فى عدة معارك حتى هزماء واستوليا على جنوبى العراق كله ، ولكن « ابن طباطبا » مات مسموما بتحرىض من أبى السرايا الذى ولى مكانه أحد الشبان العلويين .

وفى ما كان أوار تلك الفتن يستمر على ضفاف دجلة بوبع « محمد بن جعفر الصادق » بالخلافة فى الحجاز ، وهكذا أصبحت البلاد من حدود فارس إلى اليمن تفيض بالفتن والقتال ، فم القتل وانتشرت القوضى فى كل مكان ؛ ولكن الوزير برغم ذلك لم يسمح بتسرب هذه الأخبار إلى مسامع المأمون . وفى النهاية اتخذت الثورة فى العراق شكلا مريماً اضطر معها الفضل برغم شدة حقه على هزيمة إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبى السرايا ، فاقتتل الفريقان فى معركة دامية أسفرت عن هزيمة أبى السرايا الذى أرسله هزيمة إلى مرو حيث صفح عنه المأمون وأدخله فى عداد بطانته . ولما قمع « هزيمة » الثورة فى العراق ولى مصر ، ولكنه رفض قبول هذا المنصب ما لم يطلع الخليفة بنفسه على جليلة الأمر ، وبلغت نظره إلى الخطر المحدق به ، فلما دخل على الخليفة دار بينهما حديث حماسى أفضى فيه إلى المأمون فيما أفضى بأن الإمبراطورية العربية آخذة فى الاضمحلال ، ولكنه ما كاد يترك قصر الخلافة حتى هم عليه أعوان الوزير بسيوفهم وجروحهم بليغة توفى على أثرها بعد أيام قلائل ؛ وقد قيل للمأمون حينما تفقده إنه طريح الفراش ، ولم يعرف أن الدولة قد فقدت بوفاته خادماً أميناً

جاءى الثانية
٨١٩٩ ٨١٤ م

١٩٨-٢٣٢ م

وفاة هزيمة

إلا بعد مدة طويلة . كذلك أثار موته غضب رجال الجيش في بغداد نظراً إلى تعلق الجيش به وتقانيه في خدمته ، ويقال إن الفوضى انتشرت من جديد في كل مكان ، وتآلب الشعب على « الحسن بن سهل » وأخيه « الفضل » وانتخبوا مكانه « حسن المنصور » بن المهدي الذي قبل المنصب حتى يصل المأمون إلى العاصمة أو يرسل من ينوب عنه .

وفي سنة ٢٠٠ هـ بدأ المأمون بتنفيذ مشروعه الخطير الذي طالما فكر فيه ٨١٥ هـ ٢٠٠ م

منذ زمن بعيد ، وهو نقل الخلافة إلى آل البيت ، وتحقيقاً لهذه الغاية أرسل في طلب الإمام الفاطمي « علي الثالث » ابن موسى الكاظم من المدينة ، وصرح علانية بأنه نظر في أبناء « العباس » ^(١) وأبناء « علي » ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أحق بولاية العهد من « علي بن موسى الرضا » . وفي اليوم الثاني من شهر

مبايعة على
بولاية العهد

رمضان سنة ٢٠١ هـ أقام له حفلة البيعة بولاية العهد ، ولقبه « بالرضا من آل محمد » ٨١٣-٨٤٧ م

كما أمر باستبدال لون السواد شعار العباسيين باللون الأخضر شعار الفاطميين الذي اختاره شعاراً للدولة ، فأثارت مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين غضباً شديداً جعلهم يبايعون إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، ويطردون عمال الحسن من العاصمة ، فانتشرت الفتنة في بغداد والمدن المجاورة ، وسادت الفوضى وتغلب اللصوص وقطاع الطريق وعم الخراب ، وزادت أعمال العنف وساءت الأحوال حتى اضطر الأشراف إلى التأهب لحماية أنفسهم وأموالهم ، فألفوا فيما بينهم لجناً لصيانة الأمن وتنفيذ القوانين ومعاينة المعتدين بما يستحقون من عقاب ، وظلت هذه اللجان تقوم بواجبها باطراد حتى وصل المأمون بغداد . أما الأحوال في جنوبي العراق والحجاز فلم تكن لتقل سوءاً عن غيرها من الأمصار ، ولم يكن لإبراهيم ولا للحسن بن سهل أي نفوذ على الناس في تلك الأصقاع ؛ فانتشرت الفوضى وعم الخطب ، وذهبت الطمأنينة من النفوس ، وغاض معين الأمن ،

الاضطرابات
في بغداد

(١) بلغ لإحصاء الأسرة العباسية في ذلك الحين ٣٣.٠٠٠ نسمة .

وتفككت أواصر الإمبراطورية بنتيجة سوء إدارة الوزير الفارسي .

وفي هذه الأزمة الطاحنة توجه الإمام على الرضا إلى المأمون وشرح له الحقيقة ، وأعلمه بأن الوزير إنما يموه عليه الأمور ويحول دون تسرب الأخبار إليه ؛ كذلك أخبره أن أهل بيته قد بايعوا إبراهيم^(١) بن المهدي بالخلافة ، وأنهم ينقمون عليه بيعته له من بعده ، وأعلمه أيضاً بكل ما حدث منذ مقتل أخيه الأمين ، فدهش الخليفة وسأل بطبيعة الحال فيما إذا كان هناك من يعرف هذه الحقائق التي أفضى إليه بها فسمى له بعض القواد . ولما سألهم المأمون أخبروه بالخبر الصحيح بعد أن أمنهم على أنفسهم وضمن حمايتهم من غضب الوزير ونقمته ، وزادوا على ذلك بقولهم : إن الخليفة قد فقد بموت هرثة خادماً أميناً ، وإن الفضل دس له من قتله انتقاماً منه ، وإن إبراهيم المهدي لم يكن مندوب المأمون كما ادعى الوزير ، إنما أهل بيته بايعوه بالخلافة لنقمته عليه . فزالت الفسادة عن أعين الخليفة وأمر بشد الرحال إلى الغرب على جناح السرعة ، فسافر في اليوم التالي وبصحبه جميع موظفي البلاط ؛ ولما أدرك « الفضل » أن مكيدته قد فشلت ، وأنه لا يستطيع الإيقاع بالإمام الرضا الذي كان منصبه يحميه من كل اعتداء ، أخذ يصب جام غضبه على أولئك القواد الذين أيدوا كلام الإمام فجحد البعض وسجن البعض الآخر وذبح عدداً غير قليل ممن استطاع التنكيل بهم . وفي هذه المرة ذهب « على الرضا » إلى المأمون وشرح له أعمال الوزير ، فأجابه الخليفة قائلاً : إنه لا يستطيع على الفور تجريد الفضل من السلطة والنفوذ ، إنما يجب أن يفعل ذلك بالتدريج ويدارى ما هو فيه ، غير أن أعداء الوزير من أهل فارس كانوا قد توقعوا أن الخليفة سيعزله من منصبه فشد عليه قوم منهم في

سفر المأمون
إلى بغداد

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن المهدي ، وكانت له اليد الطولى في القضاء والضرب بالملأى وحسن النادرة ، وكان أسود اللون ، لأن أمه كانت جارية ، وكان وافر الفضل ، عزيز الأدب ، واسع النفس ، سخي الكف ، ولم ير في أولاد الخلفاء أفصح منه لساناً ، ولا أحسن منه شعراً . (ابن خلكان ص ١٢ ج ١) . (المغرب)

«سرخس» التي تبعد يوماً واحداً عن مرو وضربوه بسيفهم حتى مات ، فأمر بهم الخليفة وبمعرضهم فضربت أعناقهم .

ولما وصل المأمون إلى طوس ، وهي البلدة التي دفن فيها أبوه الرشيد مكث قليلاً من الزمن ، وهناك فقد صديقه الأمين ومستشاره المخلص «الإمام الرضا» الذي أنقذ فعلاً الإمبراطورية من الانحلال والخراب . وقد توفي الإمام فجأة^(١) وخلفه «ابنه محمد» الملقب بالجواد والتقى ، لحزن عليه المأمون حزناً بالغاً ، وبنى له قبراً أصبح منذ ذلك الحين مقصد الحجاج الشيعة يؤمنونه من كافة أنحاء العالم ويسمى بالمشهد أو المشهد القدسي . وبعد أن دفنه المأمون وأصل سيره إلى العاصمة وكان يقف في كل مدينة مدة من الزمن تختلف باختلاف خطرهما وأهميتهما ؛ فكث في التهرؤان ثمانية أيام حيث خرج إليه القواد ووجوه بغداد وأهل بيته ، وكان يلبس الجميع الملابس الخضراء ، ولكنه نزولاً على طلب «طاهر بن الحسين» الذي جاء من الرقة ليسير بمعيته واستجابة لرجاء الزعماء الآخرين رجع إلى لبس السواد شعار العباسيين .

وفاة الإمام
على الرضا
٨٢٠٣-٨١٨ م

٨١٣-٨٤٧ م

٨٢٠٤-٨١٩ م

اصطفي دخول المأمون مدينة بغداد بصبغة النصر والفوز ؛ فأقيمت أعلام الزينة ولبس الناس أبهى الملابس ، وكانت الجموع المزدحمة في الشوارع تهلل فرحاً واستبشاراً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه ، وبوصوله انتهت أعمال التخريب وقضى على الشغب ، وأنحلت اللجان التي كانت قد تشكلت من تلقاء نفسها لحماية السكان ، ونشط الخليفة إلى إعادة تنظيم الإدارة وإصلاح ماخر به المحاربون في أثناء الحصار . ويقال إنه في إحدى جولاته الليلية كان أمير الخراج أحمد بن أبي خالد^(٢) يصف له مبلغ ما عاناه الشعب من الشدة ، فأجابه المأمون بقوله : إن بغداد

وصول المأمون
مدينة بغداد

١٩٨-٨٢٣٢ م

(١) إن القصة القائلة بأن المأمون هو المحرض على قتل «الفضل» وتسميم (الإمام الرضا) مختلفة ولا أساس لها من الصحة .

(٢) وهو يلقب بالأحول ، وقد أصبح فيما بعد وزير المأمون .

ثلاث طبقات : المظلومون والظالمون وثمة طبقة ثالثة ^(١) هي منبع كل شر وأصل كل فساد .

تعيين طاهر
أميراً على العراق
٨٢٠ ٨٢٠ م

وفاة طاهر
٨٢٢ ٨٢٠ م

والمأثور أن الخليفة استعمل أحد العلويين على الأراضى المقدسة كما ولى شقيقه الكوفة والبصرة ، وأسند إدارة الشرطة إلى طاهر الذى لم يلبث أن طلب إمارة المشرق فأسندها إليه ، وظل قائماً بإدارتها حتى وافته منيته بعد سنتين فعين ابنه مكانه وظل قائماً بإدارتها سبع سنين ، كذلك استعمل على الشام ومصر عبد الله بن طاهر أحد أولاده المشهورين وهو أكثر مروءة من أبيه ؛ وكان الخليفة قد وكل إليه فى تلك الأثناء قمع فتنة «ناصر العقيل» فقاتله فى عدة معارك حتى هزمه واضطره إلى التسليم ، ثم أرسله إلى الخليفة الذى عفا عنه كعادته .

٨٤٧-٨١٣ م

احتلال جزيرة
كريت
٨٢٠ ٨٢٠ م

وما أن استتب الأمن فى ربوع الجزيرة حتى سار عبد الله بن طاهر إلى مصر التى كانت تعصف بها ريح الفتن الداخلية فنكل بالثوار وهزمهم شر هزيمة فى موقعة واحدة . وكان أمير الأندلس الأموى فى تلك الأثناء قد نفى جماعة كبيرة من مسلمى الأسبان وأخرجهم من البلاد ، فوصلوا إلى مصر مع أسرم وأحدثوا فى الإسكندرية شغباً هائلاً ، فأمرهم عبد الله إما أن يسلموا سلاحهم أو يفادروا البلاد من فورهم ؛ فطلبوا السفر إلى جزيرة كريت وعندئذ زودهم بالموونة الكافية والمساعدات التى كانوا يحتاجونها لاحتلال الجزيرة ، كما التحق بهم عدد غير قليل من المتطوعة ، فاستولوا على الجزيرة بعد مناوشات طفيفة ولا يزال يقطنها أحفاد هؤلاء المغيرين ؛ وأصبح مركزهم من أهل الجزيرة كمركز السكسونيين المستعمرين من أهل الجزر البريطانية .

الاستيلاء على
جزيرة صقلية
٨٢٣ ٨٢٠ م

كان زيادة الله الأغلب قد استولى على جزيرة صقلية باسم الخليفة قبل إغارة مسلمى الأندلس على جزيرة كريت بسنتين ؛ وفى تلك الأثناء قمت الفتن التى

(١) يهتم المواطن فى المدن المنظمة باستتباب الأمن ، أما الذين يتجنبون الشؤون العامة فإنما يفسحون المجال للطبقات المشاغبة لانتهاك حرمة القوانين .

كانت مستعرة في اليمن وخراسان دون صعوبة تذكر ، وعومل زعماء تلك الفتن بالعطف مما لم يسبق له مثيل ؛ ولكن الخليفة لم يلبث أن روع باكتشاف مؤامرة خطيرة واسعة النطاق لاغتياله ، وكان على رأسها عدد كبير من أهل بيته فأنزل بكبار المتآمرين العقاب الذي يستحقونه ، وصفح عن بقية المشتركين وكانوا من عامة الشعب .

وفي شهر رمضان المبارك تزوج المأمون من خديجة الملقبة « بيوران » بنت الوزير « الحسن بن سهل » ، وكان قد خطبها في أثناء إقامته في « مرو » ؛ وتعتبر الولاثم والأفراح التي أقيمت في ليالى العرس برهاناً ساطعاً على نخامة بلاط بغداد وعظمتها ، إذ ظهر قصر أبيها المسمى قصر فم الصلح^(١) بأبهى الحلل وأروع الزينات ، وقد أضاف فيه جميع حاشية الخليفة ١٧ يوماً^(٢) أفنن خلالها في إظهار ضروب الكرم والسخاء . وتقول لنا الرواية العربية إن من جملة سيدات البلاط اللواتي حضرن حفلة الزفاف السيدة زبيدة وابنتها ، وكان جالهن الأخاذ ونخامة ملاسهن مصدرين خصيين لخيال الشعراء الذين دعواهم أيضاً لمشاهدة الأفراح أما العروس فكانت أكثرهن جمالا وأشدهن فتنة ورواء . والمأثور أن جدتها حملت في ليلة الزفاف صينية ذهبية وأخذت تنثر منها على الخليفة وعروسه ألف حصاة من الياقوت بمختلف الأحجام والأشكال ، فأمر الخليفة بجمعها ونظمها عقداً واحداً ثم قدمه بنفسه هدية إلى الملكة الشابة . أما غرفة العرس فقد أضيئت بشعلة من المنبر زتها ٨٠ رطلاً في شمعدان من الذهب .

وعند ما تحرك الموكب الملكي أهدى الوزير إلى المدعويين من كبار موظفي الدولة العطايا السنية ، وأنعم على الأمراء والزعماء بينادق مسك فيها رقايع بأسماء

٨٢١٠
٨٢٥-٨٢٦ م
زواج المأمون
من بوران

١٩٨-٢٣٢

(١) كان الصلح جدولاً عظيماً يلتقي بنهر دجلة على بضعة أميال من واسط ، وكان يقع قصر فم الصلح عند التقاء هذا الجدول بنهر دجلة .
(٢) بلغت الأموال التي أنفقها الحسن ٥٠ مليون درهم .

ضياح وأسماء جوار ودواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا ما تسلمها المدعو فتحتها ثم مضى إلى الوكيل المعين لذلك فدفمها إليه وتسلم منه ما كتب فيها ، كذلك نثر الوزير على سائر الناس الدنانير والدرهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، ولأجل أن يعوض له الخليفة عما أنفق في تلك الحفلات الرائعة وهب خراج الأهواز وفارس لمدة سنة كاملة .

وقد كانت بوران من أشهر الفتيات السلمات ، فاستطاعت بحدة ذكائها وفتنتها مع ما انتصفت به من متانة الخلق أن تحتل مكاناً سامياً في قلب زوجها وتنال كل مطالبها ، فاستغلت مركزها عنده لخير الشعب ورفاهيته ، كما اشتهرت بالإحسان وفتح المستشفيات والملاجئ للنساء في بغداد ، ويقال إنها عاشت بعد وفاة المأمون ٥٠ سنة فلم تشاهد الإمبراطورية وهي في أوج عظمتها تحسب بل في إبان اضمحلالها^(١) أيضاً .

بابك الاباسى
٨١٦-٨٢٠ م

٨١٣-٨٤٧ م

وفي إبان عهد المأمون بينما كانت الإمبراطورية تمصف بها ربح الفن الداخلية والحروب الأهلية ، شق أحد قطاع الطرق المسمى بابك عصا الطاعة واستولى على حصن منيع في وهاد « مازندران » ، وهو ينتسب إلى الطائفة المانوية على المذهب الخرمى ، ويقول بتناسخ الأرواح ، والتحرر من قيود الأخلاق والأوضاع السماوية .

وقد أخذ هذا التأثير يغير من حصنه — الذى اعتمص به في قم الجبال — على القرى المجاورة ، ويسبى النساء ويسلب الأموال ، ويصل السيف في رقاب الأهليين من غير ما رحمة ولا شفقة ، حتى وجهت الحكومة عليه الحملات العسكرية ، ولكنه كان ينتصر عليها وينكل بها في كل مرة نظراً لمناعة حصنه وشدة تيقظه ؛ وظل الحال على هذا النوال بضع سنين إلى أن حاصره جيش الخليفة حصاراً شديداً وسد عليه المسالك ، فلم يلبث أن هرع إلى الروم وتحالف

(١) وقد توفيت سنة ٨٨٤ م .

معهم على غزو البلاد الإسلامية ، وكان يجلس وقتئذ على عرش الدولة البيزنطية نيوفيلوس بن ميخائيل ، فتعاقد الاثنان وهما على المدن الواقعة على الحدود يعميثون فيها فساداً وتحريبا ، حتى سارع إليهم المأمون بنفسه على رأس جيش جرار ، فاشتبك الفريقان في ثلاث معارك متوالية ، دارت فيها الدائرة أخيراً على الروم وعلى حليفهم «بابك» ، فسألا الخليفة الصلح ، بيد أن تلك الحروب الدامية لم تمر دون أن تخلق جوا عدائيا بين الروم والمسلمين وتترك للأحفاد تراثاً من الضغائن لا يزال أثره باقياً في الغرب حتى اليوم .

حرب الروم

ولما انتصر المأمون على جيش الروم وحليفهم وشتت شملهما ، أرسل إلى مصر جيشاً كبيراً برئاسة الأنشين — قائده التركي المشهور الذي بدأ نجمه يتألق في ذلك العهد — وقد تمكن من الاستيلاء على الفرما وهي أقصى نقطة في مصر العليا التي اعتصم فيها الثوار بعد أن منوا بشر هزيمة .

١٩٨-٢٣٢ هـ

ولأجل أن يحول الخليفة دون تكرار غزو الروم في المستقبل أسس مستعمرة عسكرية في الطوانة التي تبعد عن طرسوس حوالي ٧٠ ميلا ، ولكنه ما كاد ينجز هذا العمل حتى وافته منيته ؛ ويقال إنه بينما كان معسكراً بالبلدندون من ضواحي طرسوس ، جلس ذات يوم من أيام الخريف مع أخيه على ضفاف النهر المسمى باسم المدينة ووضعاً أقدامهما في مياه النهر ، وإنيهما كذلك إذ أصابتهما حمى شديدة نقل المأمون على أثرها إلى «طورسوس» حيث توفي بعد مدة وجيزة ودفن في بستان لأحد أتباع والده الأمناء في تلك المدينة . أما المعتصم فقد أبل من مرضه واستطاع أن يسمع وصية أخيه الماثورة قبل وفاته ، ومما جاء فيها : « اعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلكه ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ؛ الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته

١٨ رجب

٨٢١٨

(٩ آب ٨٣٣ م)

وفاة المأمون

وآثرته على غيره من هوالك ، وخذ من أقوياتهم لضعفاتهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت .

كانت ولادة المأمون سنة ١٧٠ هـ أى في نفس اليوم الذى بويج فيه هرون الرشيد بالخلافة ، وكانت مدة خلافته ٢٠ سنة وستة أشهر عدا المدة التى كانت تقرأ فيها الخطبة باسمه فى جوامع مكة والمدينة ، وعدا المدة التى حوصر فيها الأمين ببغداد .

كان المأمون قوى البنية بهى الطلعة لا يضارعه أحد من بنى العباس هيبة ووقاراً ، نظراً لما كان يتحلى به من الشجاعة والإنصاف وشدة العزم وبعد المهمة والبسالة وغيرها من الصفات الحمودة والحاصل السامية ، وقد سجل له التاريخ سلسلة طويلة من الوقائع والحوادث الخالدة ، وعلى الجملة لم يسبق أن اعتلى عرش الدولة العباسية خليفة يضاهيه حكمة وبعد نظر .

المدنية والعلوم
٨١٣-٨٤٧ م

وقد كان عصره ألمع عصور الحضارة العربية على وجه الإطلاق فسمى بحق العصر الإسلامى الذهبى ، ولا مشاحة أن العشرين سنة التى قضاها فى الحكم تركت كنوزاً زاحرة من الثروة الفكرية ، ولم تقتصر هذه النهضة على ناحية معينة من العلوم أو الآداب ، بل شملت جميع نواحي التفكير والثقافات ، فازدهرت فى عهده العلوم الفلسفية ، وانبثقت الحركة العلمية ، وارتقت العلوم الرياضية والفلك والطب وما إلى هذه العلوم خلال تلك المدة اللامعة فى تاريخ الحضارة الأسيوية ، وانتقل تراثها فيما بعد إلى الأندلس والقسطنطينية المسيحية ، ومنها سطمت على أوروبا الحديثة بنورها المتألق . والمعروف أن المأمون كان يذهب إلى أن سمادة الشعب الحقيقية تتوقف على انتشار العلم وبث الثقافة ، فلم يقنع ببقاء نشر التعليم عالة على سخاء الخلفاء أو الهدايا التى يمنون بها عليهم من حين لآخر

بل أرصد الأوقاف للصرف منها على تشجيع الحركة الفكرية ، وفتح المدارس والكليات في سائر أنحاء الدولة . ويقول المؤرخ أولسنر في هذا الشأن : « إنا نشاهد في عصر المأمون حكومة دينية أوتوقراطية تشجع لأول مرة الفلاسفة وتعمل على ازدهارها » . وكان المأمون في تساهله المشهور لا يؤثر مذهباً أو جنساً خاصاً بل أباح الاستخدام في مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ونحلهم ، ومنذ سقوط الجمهورية الإسلامية وتأسيس الحكومة الأوتوقراطية كان الوزراء هم المستشارون الوحيدون للخلفاء ، غير أن المأمون أنشأ مجلساً استشارياً للدولة يتألف من ممثلي جميع الطوائف ، وأصبح هذا الديوان يضم المسلمين واليهود والمسيحيين والصابئين والزرادشتيين على حد سواء ، وكانت حرية الاعتقاد والعبادة مضمونة للجميع ؛ أما الخلافات وما كان يعقبها من الاضطهادات المؤقتة فلم تكن إلا نتيجة من نتائج أخلاق بعض الحكام المحليين وسوء إدارتهم ، بيد أن حرية الاعتقاد في عصر المأمون شملت الجميع ، وأضحت مضرب الأمثال في التساهل حتى بلغ عدد الكنائس التي شيدت في عهده ١١٠٠٠ كنيسة علاوة على مئات الهياكل اليهودية ومعابد النار ؛ وكان بطريركا أورشليم وأنطاكية زعما الكنيسة المسيحية ومن يتلوها في المرتبة الدينية من مطران وأسقف وكاهن يتمتعون جميعاً بالامتيازات والحصانات الكاملة التي كان يتمتع بها أمثالهم في الدول المسيحية التي تدين بدينهم .

مجلس شورى
المأمون
١٩٨-٢٣٢هـ

كذلك رأى المأمون بثاقب فكره منحنى الآراء التي أخذت تتسرب بالتدريج إلى المدرسة التي كان يرأسها والشدة التي لا يستها بمضى الزمن ، وما أفضت إليه هذه الشدة من نتائج وتأثيرها في المجتمع ، فاعتقد اعتقاداً جازماً بأن التمسك بتلك الآراء تهمة خطيرة ، لأنها في رأيه كانت ترمى إلى خنق كل حركة اجتماعية أو سياسية ثم تنتهى أخيراً بتقويض دعائم الدولة ؛ كما إدرك ما قد يؤول إليه حشو عقل الإنسان بالآراء الجامدة ، ولهذا نراه ينشط خلال السنوات الأربع

المقلبون في
عهد المأمون

الأخيرة من حكمه إلى العمل على تحرير الفكر الإنساني من الأغلال التي بدأ يتقيد بها .

ولم يكن ثمة من يعادله في الأخذ بناصر تلك النهضة الفلسفية إذ كان متفوقا على معظم علماء عصره في الحديث والفقه ودراسة القرآن وفهمه ، فضلا عن أنه كان أحد تلاميذ الإمام الرضا الذي أخذ عنه حب الفلسفة والعلم وحرية الفكر . وقد شاهد النصف الأول من القرن الثاني حركة الاعتزال التي قام بها واصل بن عطاء أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق المعروف برحابة الصدر ، وقد أخذ عنه « واصل » تقدير الفكر الإنساني . وتقول لنا الرواية العربية بأن « واصلًا » جالس حسن البصري ، ولما اختلف معه في بعض القضايا اعتزله وسمى أتباعه بالمعتزلة^(١) كما أطلق على مذهبه اسم « الاعتزال » . أما مذهب المحدثين فكان يقرر بضع عقائد يراها واصل بن عطاء مخالفة لمذهبه ، ذلك أنها تقول بأن أعمال الإنسان مقدرة قبل وقوعها ، أو بمعنى آخر أن الإنسان ليس مخيراً في إرادته ، وأن العالم الآخر مادي ، وأن الله يرى بالعين وصفاته قائمة بذاته وأن القرآن غير مخلوق بل موجود منذ الأزل .

المعتزلة

أما المعتزلة فيذهبون من الجهة الأخرى بالاتفاق مع الأئمة إلى أن الإنسان حر في خلق أفعال نفسه الاختيارية خيراً كانت أو شراً^(٢) ، وأنه ليس ثمة آخرة مادية ، ولا يمكن أن يرى الله عياناً ، لأن ذلك يدل على التجسيم^(٣) وأن

(١) ذكر الشهرستاني في (الملل والنحل) وابن رسته في (الأعلاق النفيسة) وابن خلكان في (ترجمة قتادة) « أن واصلًا وممرا بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن على أثر تقريرهما أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسط بين الإيمان المطلق والكفر المطلق » . وذكر المسعودي في (مروج الذهب) « أن المعتزلة يقولون بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين » . (المغرب)

(٢) بقول المستشرق دي بوير في كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية) « علل بعض المعتزلة وجود الشر على الأرض بأنه من آثار الحكمة الإلهية التي تأتي بالأحسن في كل شيء . ولكن ليس الشر نتيجة أو غاية لفعل الله » . (المغرب)

(٣) بقول الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) : « إن المبدأ الأول (أي الخالق) =

صفات^(١) الله غير منفصلة عن ذاته ، وأن القرآن مخلوق . وتؤيد المعتزلة أيضاً أنه ليس ثمة قانون أبدي فيما يخص أعمال الإنسان ، وأن القوانين الإلهية التي تبين سلوك الناس إنما هي نتيجة من نتائج التطور ، وأنها عرضة لنفس قانون التغيير ذلك القانون الذي به يسيطر الخالق على الكون .

اعتنق المأمون مبادئ المعتزلة وحاول نشرها إذ كان يمتد أف خدمة المسلمين وكل أمل في التقدم والرفق إنما يتوقف على اعتناق هذه المبادئ . وفي سنة ٢١٧ هجرية أوعز إلى والي بغداد بأن يجمع أشهر الفقهاء والعلماء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ، ثم يرسل إليه إجاباتهم ، فأعرب سظم فقهاء بغداد وعلماؤها — سواء على سبيل الاعتقاد أو للدارة — عن موافقتهم على آراء الخليفة إلا أن البعض بقي ثابتاً على عقيدته قائلاً بأن القرآن غير مخلوق ، ومنهم أحمد بن حنبل^(٢-٣) الذي أثبت أنه أشدهم تعصباً . ولو أمد الله في عمر المأمون لاستطاع بشخصيته الفذة ، وعبقريته النادرة ، وتضلعه في علوم الدين أن يقضى على عناد المعارضين القلائل ؛ وقد اقتنى خليفته أثره وحاول أن يكلا عمله ، ولكن كانت تنقصها الكفاية ورحابة أفق التفكير . وقد بلغ المذهب العقلي في عهد هؤلاء

المذهب العقلي
الإسلامي
٨١٣-٨٤٧ م

= فاض من وجوده العقل الأول ، وهو موجود قائم بنفسه ، ليس بجسم ولا منطبع في جسم يعرف نفسه ويعرف مبدأه . (المغرب)

(١) يقول القريري : « إنه ظهرت فرقة المشبهة وعارضت المعتزلة معارضة شديدة في إثبات صفات الله وانقسمت إلى سبع فرق » . (المغرب)

(٢) أصبح الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب السني الرابع وقد أدى تعصب أتباع ابن حنبل في عهد الخلفاء المتأخرين إلى فتن متواصلة ، وما ينجم عنها من شغب وإراقة دماء .

(٣) جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٨ ج ١ « أنه ولد في بغداد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، وقيل إنه ولد بمرج وحل إلى بغداد وهو رضيع ؛ وكان إمام المحدثين ، صنف كتابه السند ، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وكان من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنهما وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، ودعي إلى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وجلس وهو مصر على الامتناع ، وكان حسن الوجه ربعة . أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل ، منهم محمد بن إسماعيل البخاري ، ومسلم ابن الحجاج النيسابوري » . (المغرب)

الخلفاء الثلاثة شأوا لم يبلغه حتى في العصور الحديثة في الممالك الأوربية ، إذ كان دعاة المذهب العقلي وقتئذ يخطبون في الجوامع ويحاضرون في الكليات . وعلى الجملة طفقوا يوجهون شباب الأمة كما يريدون ؛ ولا يمكننا أن نعطهم حقهم ، أو ننكر عليهم نفوذهم الذي استعملوه بكل حكمة وروية ، فقد اشترك جميع قادة الفكر من أساتذة ووعاظ وعلماء وأطباء ووزراء وحكام في ترقية الشعب العربي ورفع مستواه العلمي والثقافي .

كان عصر المأمون ألمع عصور التاريخ الإسلامي دون منازع ، ولا جرم أن العلوم والآداب دراسة العلوم ونشر الثقافة أكبر دليل على رقي الشعب وتطوره ، فقد كان البلاط يجمع بالعلماء والشعراء والأدباء ورجال الطب والفلاسفة ، الذين كانوا يهرعون إليه من كل حذب وصوب على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ؛ وقد كان المأمون يتفانى في إكرامهم ، ويشمل كل من يقصده منهم ببره وعطفه دون أى تفریق . ويقول مؤرخ فرنسى معروف بإنصافه لمدنية العرب ونشاطهم الفكري : « إن المأمون طبع عصره بطابعه الخاص ، وأكسبه تلك العظمة الأدبية التي اشتهر بها فيما بعد » .

كذلك يمزى إليه نغز إنجاز العمل الذي بدأ به جده المنصور ، إذ أحاط نفسه برهط من الحكماء والفنانين الذين أحيوا له عهد مكتبة الإسكندرية ، وتمكن باتصاله بمراطرة القسطنطينية من جلب أشهر كتب الفلسفة اليونانية من « آئيننا » ، ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد بترجمتها إلى العلماء الأفاذا ، ثم أمر بنشرها على الجمهور ، وكان يشرف قسطا بن لوقا على قسم الترجمة^(١) من اليونانية والسريانية والكلدانية ، ويحيى بن هرون على

(١) إن أشهر المترجمين في عهد المأمون م : يوحنا ، أو يحيى البطريق ، والحجاج بن يوسف بن مطير الكوفي ، وقسطا بن لوقا البعلبي ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ، وحنين ابن إسحق ، وابنه إسحق بن حنين ، وثابت بن قرة ، وجيش الأعسم وغيرهم .
(المرب)

قسم الفارسية القديمة ، كما أودعت رئاسة الترجمة من السنسكريتية إلى « دبان البراهمي » . كذلك شجع المناظرة والإنتاج بتأسيس الدوائر الخاصة بإشراف الأساتذة الأعلام ، وأغدق على المؤلفين المنح والعطايا ، وتعد من الأهمية بمكان عظيم تلك الأرصاد الفلكية التي تمت في عهد المأمون كالاعتدال الشمسي ، والخسوف والكسوف ، ورصد النجوم المذنبة والمظاهر الفلكية الأخرى ، وقياس حجم الكرة الأرضية .

لقد عني العرب بكل ذلك وقت أن كانت أوروبا المسيحية تبرهن على أن الأرض مسطحة ؛ كما اخترع أبو الحسن التلسكوب ويصفه بأنه أنبوب في طرفيه عدسات لانعكاس الضوء . وقد تحسنت تلك الأنابيب واستعملت فيما بعد في مرصدى مراغة والقاهرة بنجاح عظيم ، وصنفت الكتب في الرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك والمترولوجية وعلم البصريات والميكانيكا والطب ؛ كذلك صرفت أقصى العناية في دراسة الطب ، ويدلنا كثرة عدد الأطباء المتمازين الذين كانوا يشتغلون في البلاط على رعاية المأمون لهذا العلم . ولا ننسى أنه كان أول من بنى مرصداً في العالم الإسلامي في الشامية على سهول تدمر ، ثم بنى عدة مراصد أخرى في واسط وأبامية وبعض المدن الأخرى . ولا يفوتنا أنه نجم عن احتلال العرب لبلاد فارس تدهور اللغة الفارسية وآدابها ، إذ أهملها سكان البلاد الأصليين وأقدموا على تعلم اللغة العربية ودرسها ، ولكن المأمون بما عرف عنه من الرغبة في إحياء العلوم القديمة عني بترقية اللغة الفارسية التي كان قد تسرب إليها ألوف من الكلمات العربية ، ومن الذين تألق نجمهم في ذلك العهد الشاعر عباس المروى^(١) واضع أساس الشعر الفارسي الحديث .

الثقافة الفارسية
٨١٣-٨٤٧ م

وقد كان يوم الثلاثاء معداً للمناقشات الفقهية والمناظرات الفلسفية والأدبية فكان الأدباء والعلماء والفلاسفة يؤمون القصر في الصباح حيث يقدم لهم الفطور

الحلقات
(المناظرات
الفلسفية)

وما أن يصيبوا منه الكفاية حتى يدخلوا على الخليفة في الإيوان المخصص لتلك المناظرات التي كان يرأسها بنفسه ، ولم تكن لتنتهي إلا بعد صلاة العشاء ؛ فيدخلون حجرة أخرى حيث تعد لهم الموائد لتناول الطعام ، فإذا ما فرغوا منها انصرفوا إلى حال سبيلهم . أما سائر أيام الأسبوع فكانت مخصصة لمعالجة شؤون الدولة ، وكان الخليفة يجلس بنفسه للنظر في حوائج الناس ، ولم يكن ليترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويدرسها ؛ كذلك لم يكن يفرض أى عقاب إلا بدافع مستلزمات القانون ومقتضيات السياسة ، نظراً لما كان يتصف به من العدل والتسامح .

ومن أعظم الأدلة على حصافة المأمون وسداد رأيه أنه « استطاع أن يكتفى شر أحد الخوارج المغالين بأيسر الخطب » وذلك أن أحد هؤلاء كان قد دخل عليه ذات يوم دون خوف أو وجل ووقف على طرف البساط ، ثم قال : « السلام عليكم ورحمة الله » فرد المأمون عليه السلام ، فقال الخارجي : « أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته بأجتماع من المسلمين عليك أم بالمغالبة لم بالقوة عليهم بسطانتك ؟ » ، فقال المأمون : « لا هذا ولا ذاك ! وإنما أنا رجل عقد لي ولأخي معي ، ولما صار الأمر إلى علمت أني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين ، ولكني رأيت أني متى تخليت عن هذا المنصب اضطرب جبل الإسلام وانتقضت أطرافه وغلب المهرج والفتنة ووقع التنازع ، فتمطلت الأحكام ولم يصح أحد بيته ولم يجاهد في سبيله ، فقامت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهداً لدومهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه وعلى الرضا به فأسلم الأمر إليه » ، فقال الخارجي : « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع أدراجه . فانقذ المأمون أحد جلسائه ليعتمقه ، فاتضح أنه كان زعيم جماعة من المغالين اجتمعوا لإضرار نار الثورة وإعلان العصيان ، ولكن الخليفة بسداد رأيه وحصافته هدأ من غلوائهم ، وجعلهم (١٦ — مختصر)

ينصرفون بسلام . ويقال إن المأمون كتب وصيته قبيل وفاته يعهد فيها إلى أخيه أبي إسحق محمد الملقب بالعتصم بالله (أو المعتصم على سبيل الاختصار) ؛ ومن العسير أن ندرك في هذا العصر بعد تقادم العهد الأسباب التي حملت المأمون على إغفال ابنه العباس ، الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين الجنود وخصوصا الجنود العرب ، ومن المرجح أنه خشى أن يعجز ابنه عن تنفيذ السياسة التي وضع خططها لتمشية شؤون الدولة ، ولعله رأى كذلك في شدة شكيمه المعتصم ومتانة خلقه ونضوج فكره ما يضمن له تنفيذ تلك السياسة .

أبو إسحق
محمد المعتصم بالله
٢١٨-٢٢٧ هـ
٨٣٢-٨٤٢ م

ولما بويع المعتصم ضج الجيش في بادى الأمر وأراد أن يبايع العباس الذي أسرع في الحال إلى مبايعة عمه بالخلافة محترما بذلك وصية أبيه ، فحذا الجيش حذوه وهكذا تمت البيعة للمعتصم في طرسوس ، ولكنه لقصر نظره ولربما لجهله عواقب الأمور أوقف بناء « طوانة » وأعاد إلى طرسوس الذخائر والأسلحة التي كانت قد أرسلت إلى تلك المدينة ، وفيما عدا هذا الحادث يمكننا أن نقول بأنه بذل أقصى جهده في ترسم خطط أخيه واقتفاء أثره بكل دقة وأمانة .

٨١٣-٨٤٧ م

ولكن أشنع خطأ ارتكبه المعتصم هو تشكيل فرق عسكرية من الأتراك^(١) والأجانب الذين أضحو سببا مباشرا في إضعاف سلطان الخلافة وتقويض دعائمها . والمعروف أنه كان ينتظم في سلك تلك الفرق المالك^(٢) الأتراك ، والمرتقة من آسيا الصغرى وبلاد اليمن ومصر ، ويطلق على الذين يأتون من وراء النهر أهل فرغانة ، وعلى الذين يأتون من اليمن وأفريقيا اسم المغاربة ، وكان يقودهم ضباط من جلدتهم تحت إمرة الخليفة مباشرة ؛ وعليه أصبح هذا الجيش في عزلة تامة عن جيوش العرب والفرس . ولا عجب أن صار لهؤلاء الأتراك من القوة ما كان للحرس الروماني قديما ، حتى أصبح بيدهم بعد مدة وجيزة عزل الخلفاء وتعيينهم

كروين الفرق
التركية

(١) ينبغي التمييز بين أتراك العصر الحاضر وتركمان ذلك العهد ، إذ أن الفرق بين الاثنين لا يقل عن الفرق بين السكسنيين في القرن الثامن والانكايز في العصر الحاضر .
(٢) السلاف .

حسب رغباتهم وأهوائهم ؛ وكانوا يلبسون أغر الملابس ويمجرون الخيول في شوارع بغداد فيصدمون الناس في الطرق ، فلما اشتد سخط أهل العاصمة ، وشعر الخليفة بانتشار روح التدمير بين السكان ، انتقل مع جنوده المحبوبين إلى محل يسمى سامرا أو (سرمن رأى) وهو الاسم الذي عرفت به فيما بعد ، وابتقى لنفسه قصرًا فخا ، وشيد الثكنات العسكرية لسكن ٢٥٠ ألف جندي ، والاصطبلات الواسعة لاستيما ب ١٦٠ ألف حصان ؛ كما قطع القطائع إلى الرؤساء الأتراك الذين بنوا لهم قصورا ضارعت قصر الخلافة عظمة ونخامة .

وقد عرف ذلك المصر بظهور قبيلة هندية اسمها الزط أو « الجت » نزلت على سواحل دجلة . أما كيف وفدت على تلك البلاد فليس ثمة ما يكشف لنا اللثام عن هذا السر الغامض ؛ إنما كل ما يعرف عنهم أن عددهم كان يبلغ ١٧ ألف نسمة ، وأنهم كانوا يعيشون في البلاد فسادا حتى وجه إليهم المعتصم قوة صغيرة ظلت تقاتلهم وتلح عليهم حتى اضطرتهم إلى التسليم ، فأرسلوا في زوارقهم إلى بغداد كي يشاهد الخليفة ملابس نسائهم ، ومن ثم نقلوا إلى صقلية حيث هاجمهم الروم وذبحوا معظمهم ، وعندئذ تفرقت البقية الباقية منهم في تريستا^(١) .

وفي سنة ٨٣٥ توفى في بغداد الإمام « محمد التقي » الذي كان هو وزوجه أم الفضل بنت المأمون في ضيافة المعتصم ؛ فتولى الإمامة من بعده ابنه « علي » . وفي تلك الأثناء اشتد أمر بابك وعاث في البلاد فسادا ، وانتشر هو وأتباعه يعيشون في المدن والقرى سلبا ونهباً ، حتى أرسل إليه المعتصم جيشاً بقيادة « الأفشين » أحد قواده الأتراك المشهورين ، وبعد نشوب سلسلة معارك شديدة بين الفريقين استولى الأفشين على حصن الثائر المنيع ، وأبقى القبض على ابنه وأقاربه وأرسلهم جميعاً إلى بغداد حيث عوملوا بالرحمة والمعطف . غير أن بابك كان قد هرب مع أخيه إلى أرمينيا فقبض عليهما زعيم من زعماء تلك البلاد

٨٤٧-٨١٣
القبض على بابك

(١) يظهر أن البوهيميين أو النورمن سلاة هؤلاء الأقوام .

وسلّهما إلى الأفشين الذى أرسلهما إلى بغداد ، ولما كانت جرائمهما أعظم من أن تقتصر أمر الخليفة بحمل بابك على ظهر فيل ، وبعد أن طوف به فى شوارع المدينة نفذ فيه وفى أخيه حكم الإعدام .

ويقال إن الأفشين عند ما استولى على الحصن فك سراح ٧٠٠٠ امرأة مسيحية ومسلّمة كان بابك قد أسرهن ؛ ويقال بأن الخليفة استقبل قائده المنتصر استقبالا رائعا ، وأغدق عليه النعم والعطايا . غير أن هذه الحوادث لم تنته بسلام كما كان ينتظر ، إذ بينما كان الأفشين مقيما فى مازندران تحالف ملك الروم مع بابك ، وهجم بجيشه الجرار على كبيدوكيا ليثار لحليفه ، وبلغت به الشراسة مبلغا عظيما بحيث أحرق المدن ، وأعمل السيف فى رقاب الرجال ، وطلق يأسر النساء والأطفال ، كما أشعل النار فى « بطره » مسقط رأس المعتصم ، وكان يمثل بالرجال أشنع تمثيل ، فيسمل عيونهم ويشوه وجوههم بالحديد الحمى . ولما بلغت تلك الأخبار الوحشية مسامع المعتصم اشتد سخطه ، وأقسم ليثأرن لهؤلاء الضحايا البائسين ، فعبا جيشا لجبا وسار به صوب الشمال ، وما هو إلا أن التقت مقدمته بجيش تيوفيلس فى ظاهر أنقرة ، وألحقت به خسائر فادحة ، ثم سارع إلى عمورية^(١) مسقط رأس تيوفيلس ، وفتحها عنوة بعد أن جد فى حصارها ٥٠ يوما فدمرها تدميرا ، وقتل من سكانها ٣٠,٠٠٠ ، وأرسل من بقى حيا منهم إلى بغداد مع القائد اليونانى « ماطس » ؛ ولكن الخليفة لم يكذبدا بالزحف على القسطنطينية ليفتحها وينزل الضربة القاضية بالقوة البيزنطية حتى اكتشف مؤامرة خطيرة فى معسكره ، فتوقف عن الزحف ، وقد تبين له من التحقيق أن بعض القواد العرب الذين كانوا يسخطون على الأترك للنفوذ الذى يتمتعون به ويحقدون على الخليفة لسوء معاملته إياهم قد تأمروا مع « العباس » بن المأمون على اغتياله ؛ وقد شاءت الصدفة أن تكتشف هذه المؤامرة قبل استفحالها ،

الحروب مع
الروم

١٩٨-٢٣٢ هـ

(١) مكانها الآن مدينة (سدرى حصار) بتركيا . (العرب)

فأمر بإلقاء القبض على المتآمرين وحكم عليهم بالقتل ، ومن ضمنهم العباس ، ثم قتل راجعاً إلى سامرا بعد أن عقد معاهدة صلح مع « تيوفيلس » الذي أضعفته موقعة « عمورية » . وفي سنة ٢٢٤ هـ شق المازيار المانوى أمير طبرستان عصا الطاعة ؛ ولما كان الأفشين يعتقد أن عبد الله بن طاهر لا يقوى على قمع تلك الثورة بنفسه ، وأن المعتصم سيضطر أخيراً إلى توليته إمارة المشرق بدلاً من عبد الله ، فقد راح يحرّض المازيار سرا على مواصلة الحرب إلى النهاية ، ولكن عبد الله لم يلبث أن أسر « المازيار » وحمله إلى بغداد ، وفي حضرة الخليفة أقر ذلك الثائر على الأفشين وأظهر الكتب التي كان قد أرسلها إليه ، فحكم المعتصم على « المازيار » بالقتل ، كما حبس الأفشين حتى وافته منيته . ويظهر أن القائد التركي المنكود كان مثقفاً إلى حد بعيد ، إذ تبين أنه كان يملك كمية ضخمة من المؤلفات النادرة بمختلف اللغات ، وعدة تماثيل آية في الروعة والجمال ، وجميعها تؤيد إلى حد بعيد بأنه سبق عصره وجاء قبل أوانه ، فأراد أن يحيط نفسه بالجلدات الأدبية النادرة ، والآثار الغريبة التي كانت تحمل إليه من مختلف الأمصار .

وفاة المعتصم
٢٢٧ هـ (٥)
كانون الثاني
٨٤٢ م

وقد أصيب المعتصم بمرض عضال^(١) قضى عليه في ١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ . ويقال إنه صرف شطراً من عنايته في تحسين الزراعة ، واهتم اهتماماً خاصاً باستثمار موارد البلاد الطبيعية ؛ ومع أنه كان سريع الغضب قاسياً ، إلا أن قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد كان دائماً يهدى من نزواته ويحبط الأعمال الجائرة التي كان يشير بها وزيره . ويصف أحد المؤرخين أحمد بن أبي دؤاد بأنه من أوائك الرجال الأفذاذ الذين وهبوا صفات ممتازة ، ويشيرون باتباع الحق وحب الصدق والحض على الفضيلة ، وقد كان فوق ذلك زعيم المعتزلة .

أبو جعفر هرور
الواثق ياقه
٢٢٧-٢٣٨ هـ
٨٤٢-٨٤٩ م

وخلف المعتصم ولده أبو جعفر هرور الواثق بالله الذي كان ، برغم افتراء بعض الكتاب المتعصبين ، حاكماً ماهراً كريماً صبوراً واسع المعروف ، لم تشب

أخلاقه قط أية شائبة برغم حبه للمجون ، وكان مغرمًا بالآداب والعلوم ، مشجعاً للتجارة والصناعة ، يميل إلى الموسيقى ميلاً خاصاً أدى به إلى الاشتراك في تهذيب أنعامها ، ويقال إنه وضع بعض الأصوات^(١) والأنغام الجديدة ؛ وكان إحسانه يفوق حد الوصف بحيث لم يكن يرى في البلاد الإسلامية في خلال حكمه متسول واحد ، وفي عهده تبودلت الأسرى بين الروم والمسلمين .

١٩٨-٢٣٢ هـ

ولكن مما يؤاخذ عليه أنه استمر على خطأ أبيه في استخدام الأتراك وإهمال شأن الجيوش العربية والفارسية ، كما عين أشناصاً التركي سلطاناً للدولة وتوجه بتاج مرصع ، وسوّره بسوارين من ذهب ؛ كذلك حاول أن ييث مبادئ حرية الفكر في الشعب ، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح إذ قاومها القضاة الرجعيون الذين اشتغلوا سرا ضده ؛ ويعتبر موته السابق للأوائ خسارة لا تعوض ، إذ انقضى بموته عهد العظمة العباسية ، فأضحى تاريخ هذه الأسرة في خلال القرنين التاليين صورة مضطربة لحكام يرتقون عرش الخلافة لا حول لهم ولا قوة ، ثم يوارون التراب غير مأسوف عليهم . وقد توفي الواثق في مدينة سمر من رأى في ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ .

وفاة الواثق
١١ آب ٨٤٧ م

(١) جاء في الأغاني ج ٩ ص ٢٧٧ أن الواثق صنع مائة صوت ليس فيها صوت واحد ساقط . (المعرب)